وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا
بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ
رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ
ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾
قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ
عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ
تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ
لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ
هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾

ولا بالّذى بين يديه : أي تقدّمه كالتّوراة والإنجيل الدّالّين على البعث لإنكارهم له(١).

موقوفون عند ربّهم : يتلاومون يحاور بعضهم بعضاً(٢) وجواب لو محذوفٌ تقديره لرأيت عجباً(٣) ومفعول ترى محذوف، أي ترى حال الظّالمين(٤).

(١) الجلالين.

(٢) تفسير الطبرى ٢٢/٦٦.

(٣) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٣١٣.

(٤) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٣١٣.

بل مكر اللّيل والنّهار : بل مكركم لنا باللّيل والنّهار صدّنا عن الهدى[1].

أندادا : شركاء[2].

وقال كفّار مكّة المنكرون للبعث لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالّذى تقدّمه كالتّوراة والإنجيل، لأنّها تدّل على البعث وتدعو إلى الإيمان به. ولو ترى يا محمّد ويا أيّها المؤمن إذ الكافرون موقوفون عند ربّهم للحساب والجزاء يَرْجِع بعضهم إلى بعض القول ويتبادلون التّهم لرأيت عجبا. يقول الّذين استضعفوا من الأتباع للّذين استكبروا من السّادة لولا أنتم وصدُّكم لنا عن السّبيل لكنّا مؤمنين.

قال السّادة الّذين استكبروا وتجبّروا للأتباع المستضعفين في هيئة أسلوب الاستفهام الإنكاري : أنحن صددناكم عن الهدى بعد أن جاءكم ووصل إليكم فعلا. الحقيقة أنّكم كنتم قوماً مجرمين في أنفسكم.

وقال الّذين استضعفوا من الأتباع للّذين استكبروا من السّادة بل مكركم بنا في اللّيل والنّهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله تعالى ونجعل له شركاء هو الصّارف لنا عن الهدى فأنتم السّبب وراء البلاء الّذى حلّ بنا.

وأسرّ كلّ فريقٍ النّدامة في نفسه خشية التّعيير، وجعلنا الأغلال في أعناق الّذين كفروا وأيديهم والسّلاسل في أرجلهم، وسحبوا إلى نار جهنم، وقيل لهم هذا جزاء سوء عملكم، وماتنالون إلاّ جزاء ما كنتم تعملون.

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/٦٧.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٢/٦٧.

(٥)

(تسلية النّبيّ ﷺ، وبيان أنّ التّرف سبب الكفر والكفران وتكذيب خير الأنام وطاعة الشيطان، فعلى كفّار مكّة تدبّر الأمر قبل فوات الأوان، وإلاّ كان المصير كالسّابقين)

الآيات (٣٤ ـ ٥٤)

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ
مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾
وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾
قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا
زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ
بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ
ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ
إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ
أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾

وما أرسلنا في قرية : وما بعثنا إلى أهل قرية(١).
من نذير : أي نبيٍّ أو رسول(٢).
مترفوها: رءوسهم وقادتهم في الشرّ(٣).
وما نحن بمعذّبين : في الآخرة(٤).
يبسط الرزق : من المعاش والرّياش في الدّنيا(٥).
ويَقْدر : يضيّق(٦).

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٦٧.
(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٥٠٨.
(٣) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٦٧.
(٤) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٦٧.
(٥) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٦٨
(٦) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٦٨.

ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون : أنّ الله يفعل ذلك اختباراً لعباده، ولكنّهم يظنّون أنّ ذلك منه محبّةٌ لمن بسط له، ومقتٌ منه لمن قَدَر عليه(١).

زُلفى : قربة(٢) وتقريباً(٣).

إلاّ : لكن(٤).

جزاء الضّعف : الضّعف من الثّواب الواحدة عشر(٥) والحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف(٦).

وهم في الغرفات : في منازل الجنّة العالية(٧).

والّذين يسعون في آياتنا معاجزين : والّذين يعملون في حججنا وآي كتابنا يبتغون إبطاله ويريدون إطفاء نوره، معاونين يحسبون أنّهم يفوتوننا أنفسهم ويعجزوننا(٨).

وما أنفقتم من شيء : في الخير(٩) في غير إسراف ولا تقتير(١٠).

فهو يخلفه : أي مهما أنفقتم من شيءٍ فيما أمركم به وأباحه لكم فهو يخلفه عليكم، في الدّنيا بالبدل، وفي الآخرة بالجزاء والثّواب(١١).

---

(١) تفسير الطّبري ٢٢/٦٨.

(٢) تفسير الطّبري ٢٢/٦٨.

(٣) الجلالين.

(٤) الجلالين.

(٥) تفسير الطّبري ٢٢/٦٨.

(٦) تفسير ابن كثير ٦/٥٠٩.

(٧) تفسير ابن كثير ٦/٥٠٩.

(٨) تفسير الطّبري ٢٢/٦٩.

(٩) الجلالين.

(١٠) تفسير الطّبري ٢٢/٦٩.

(١١) تفسير ابن كثير ٦/٥١٠.

الآيات الكريمات في تسلية المصطفي ﷺ وفي إرشاد العباد إلى طريق الهدى والرّشاد.

إنّ الله سبحانه وتعالى ما أرسل في قريةٍ من القرى من نّبيّ ينذرهم أو رسول إلاّ قال مترفوها ومن بطروا النّعمة إنّا بما أرسلتم به أيّها المرسلون والنّبيّون لكافرون. وهذا ما قاله كفّار مكّة للنّبيّ ﷺ فعليه أن يصبر كما صبروا حتّى يجيء نصر الله والفتح. وقال أولئك الكافرون نحن أكثر من المؤمنين أموالاً وأولاداً دليلاً على كرامتنا عند الله تعالى وإلاّ لأعطى المؤمنين خيراً ممّا أعطانا. وما نحن بمعذّبين في الآخرة، لأنّ ما نحن فيه من نعيم في الدّنيا مؤشّرٌ على ما سوف نكون فيه من نعيمٍ في الآخرة إن كان ثمّة بعثٌ وحسابٌ وجزاء.

قل يا محمّد لهؤلاء الكافرين الفخورين بأموالهم المستكبرين بأبنائهم إنّ ربّي له الحكمة البالغة والحجّة الدّامغة في كلّ ما يفعل. إنّ ربّي يبسط الرّزق لمن يشاء من عباده ويقدر الرّزق ويضيّقه على من يشاء اختباراً للفريقين. أيشكر الأوّلون بالصّبر على الطّاعات وعن المعاصي أم يكفرون. أيصبر الآخرون على البلاء والطّاعات وعن المعاصي أم يجزعون ويكفرون. إنّ بسط الله تعالى الرّزق لهؤلاء ليس دليلاً على كرامتهم على الله تعالى فقد يكون مكراً بهم واستدراجاً لهم. وإنّ تضييق الرّزق على هؤلاء ليس دليلاً على هوانهم على الله تعالى فقد يكون زيادةً في رفع درجتهم شريطة أن يصبروا ويحتسبوا ويؤمنوا ويعملوا صالحاً.

إنّ كفّار مكّة ومن شاكلهم لا يعلمون هذه المرامي البعيدة والمعاني السّامية. وإنّ السّياق ليبيّن للكافرين ما خفي عليهم. إنّ أموالهم وأولادهم ليست هي الّتي تقرّبهم إلى الله تعالى تقريباً وترفع منزلتهم عنده عزّ وجلّ زلفى. لكن من آمن وعمل صالحاً وأراد بكلّ عملٍ صالحٍ وجه ربّه الأعلى بما في ذلك المال والولد فإنّ لهؤلاء الثّوابَ المضاعفَ بما عملوا، فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف فأكثر. وهم في الآخرة في منازل الجنّة العالية آمنون.

أمّا الّذين يجتهدون في إبطال آيات الله تعالى وحججه وفي الصّدّ عن سبيل الله تعالى، ظانّين ومقدّرين أنّهم يفوتون الله تعالى ويعجزونه، لأنّه ليس ثمّة بعثٌ

ولا جزاءٌ حسب زعمهم، فإنّ أولئك في عذاب جهنّم محضرون يوم القيامة.

ويشمل التّوجيه القرآنيّ بشأن المال المؤمنين. إنّ ربّ العزّة والجلال يأمر حبيبه ﷺ أن يبيّن للمؤمنين أنّ الله تعالى يبسط الرّزق لمن يشاء من عباده ويَقْدِره له اختباراً للفريقين وابتلاءً. وما أنفقتم من شيءٍ في الخير دون تقتيرٍ وتبذيرٍ فإنّ الله سبحانه وتعالى يخلفه. في الدّنيا بالبركة والخير الوفير، وفي الآخرة بالثّواب الجزيل. والله سبحانه وتعالى هو خير الرّازقين، الّذى لا تنفد خزائنه، ولا يخيب سائله، جلّ وعلا.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾

قالوا سبحانك : ربّنا تنزيهاً لك وتبرئةً ممّا أضاف إليك هؤلاء من الشّركاء والأنداد(١).

أنت وليّنا من دونهم : لا نتّخذ وليّاً دونك(٢) أي لا موالاة بيننا وبينهم من جهتنا(٣).

بل كانوا يعبدون الجنّ : يعنون الشياطين لأنّهم هم الّذين يزيّنون لهم عبادة

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/٦٩.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٢/٦٩.

(٣) الجلالين

الأوثان ويضلّونهم[1].

واذكر يا محمّد يوم يحشرهم جميعاً في الآخرة ثمّ يقول للملائكة الّذين عبدهم مشركو العرب وعبدوا الصّور على هيئتهم زاعمين أنّهم يعبدونهم ليقرّبوهم إلى الله تعالى زلفى : أهؤلاء المشركون إيّاكم كانوا يعبدون بأمركم وإذنكم وعلمكم ورضاكم؟ قال الملائكة الأطهار : تنزيهاً لك يا ربّنا وتبرئةً من كلّ ما أضاف إليك هؤلاء من الشّركاء والأنداد : أنت مولانا من دونهم فلا موالاة بيننا وبينهم من جهتنا. بل الحقيقة أنّهم كانوا يطيعون الشّياطين الّذين زيّنوا لهم عبادة الأصنام والأوثان، ومنها ما يزعمون أنّه على صور الملائكة. إنّ أكثر هؤلاء المشركين مصدّقون للشّياطين فيما يقولون.

وكما تبرأ الملائكة بالحقّ من المشركين عابديهم تبرأ الّذين اتُّبعوا من الّذين اتّبعوا، ورأى الجميع العذاب، وتقطّعت بينهم أسباب المودّة في الدّنيا، ولا يملك المعبودون للعابدين نفعاً يوصلونه لهم، ولا ضرّاً يدفعونه عنهم، ويقول الحقّ جلّ وعلا للظّالمين الّذين وضعوا العبادة في غير موضعها ذوقوا عذاب نار جهنّم الّتي كنتم بها تكذّبون وتستهزئون.

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٥١١.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ
قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ
وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا
جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ
يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ
فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾

إفك : كذب(١).

مفترى : مختلق متخرّص(٢).

وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير : فمن أين كذّبوك(٣).

معشار : عشر(٤).

وإذا تتلى على كفّار مكّة آيات الله تعالى البيّنات تُرتّل على لسان المصطفى ﷺ غضّةً طريّةً قالوا ما محمّدٌ إلاّ رجلٌ يريد أن يصدّكم عمّا كان يعبد آباؤكم من الأصنام والأوثان، وقالوا ما هذا الّذى يتلوه محمّد إلاّ كذبٌ اختلقه وادّعى أنّه كلام ربّ العالمين، وقال الّذين كفروا للحقّ لمّا جاءهم في هيئة القرآن الكريم ما هذا إلاّ سحرٌ مبين لقدرته على أن يفرّق بين المرء وبين أحبّ النّاس إليه.

يقول الحقّ جلّ وعلا منكراً على كفّار مكّة الّذين يقولون بغير علم : إنّ ما أعطينا كفّار مكّة ومن شاكلهم من مشركى العرب من كتابٍ سماويّ سابق، وما

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٧٠.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٧٠.

(٣) الجلالين.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٧٠.

أرسلنا إليهم قبلك يا محمّد من نذير فمن أين كذّبوك وعلى أيّ مستندٍ اعتمدوا في معارضتك والصّدّ عنك!.

لقد كذّب الّذين من قبل كفّار مكّة، وما بلغ كفّار مكّة عُشْر ما آتينا المكذّبين من المال والجاه والقوّة فكذّبوا رسلي الّذين أرسلتهم إليهم، فكان أخذى لهم أليماً شديدا، فكيف كان إنكارى عليهم وعذابي لهم وتغييرى بهم! إنّ على كفّار مكّة أن يعتبروا بما حلّ بالمكذّبين السّابقين أمثالهم وإلاّ كان المصير واحداً.

قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن
تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم
مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾
قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ
كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ ۚ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾
قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ
فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ
سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾

أن تقوموا لله : وتلك الواحدة أن تقوموا لله بالنّصيحة وترك الهوى(١).
مثنى وفرادى : اثنين اثنين وواحداً واحدا(٢).
من جنّة : جنون(٣).
إن هو إلاّ نذيرٌ لكم : ما محمّدٌ إلاّ نذيرٌ لكم(٤).

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٧٠.
(٢) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٧٠.
(٣) الجلالين.
(٤) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٧١.

قل ما سألتكم من أجرٍ فهو لكم : المعنى قل لهم : إنّي لم أسألكم على ذلك جُعْلاً فتتّهمونى وتظنّوا أنّى إنّما دعوتكم إلى اتّباعى لمالٍ آخذه منكم(١) .

إن أجري إلاّ على الله : ما ثوابى على دعائكم إلى الإيمان بالله والعمل بطاعته وتبليغكم رسالته إلاّ على الله(٢) .

وهو على كلّ شيءٍ شهيد : والله على حقيقة ما أقول شهيد يشهد لى به وعلى غير ذلك من الأشياء كلّها(٣) .

يقذف بالحقّ : وهو الوحي. يقول : ينزله من السّماء فيقذفه إلى نبيّه محمّدٍ ﷺ(٤) .

علاّم الغيوب : علام ما يغيب عن الأبصار ولا مظهر لها وما لم يكن ممّا هو كائن(٥) .

قل جاء الحقّ : الإسلام(٦) والشّرع العظيم(٧) .

وما يبدىء الباطل : وما ينشيء الباطل خلقاً(٨) والباطل : الكفر(٩) .

وما يعيد : ولا يعيده حيّاً بعد فنائه(١٠) .

فإنّما أضلّ على نفسى : فإنّ ضلالي عن الهدى على نفسى ضرّه(١١) .

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٧١.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٧١.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٧١.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٧١.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٧١.

(٦) الجلالين.

(٧) تفسير ابن كثير ٦/ ٥١٤.

(٨) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٧١.

(٩) الجلالين.

(١٠) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٧١.

(١١) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٧١.

فبما يوحى إليّ ربّى : فبوحي الله الّذى يوحى إليّ وتوفيقه للاستقامة على محجّة الحقّ وطريق الهدى[1] .

هذه مجموعةٌ من آي الهدي السّماويّ للمصطفى ﷺ.

إنّ الحقّ جلّ وعلا يأمر المصطفى ﷺ في الآية الكريمة الأولى أن يقول لكفّار مكّة المصرّين على كفرهم وعنادهم : إنى أعظكم بمسألة واحدة. أن تقوموا لله تعالى بالنّصيحة وليس بباعث الهوى والعصبيّة اثنين اثنين، وواحداً واحدا، ثمّ تتفكّروا في أمر محمّد بن عبد الله ﷺ ودعوته، وشخصيّته، وقواه العقليّة، وسيرته. إنّكم سوف تنتهون حتماً إلى أنّ محمّداً ﷺ ليس بمجنون. ما هو إلاّ نذيرٌ لكم بين يدى عذاب جهنّم الشّديد إن لم تؤمنوا وتعملوا صالحاً.

وفي الآية الكريمة الثّانية يأمر الحقّ جلّ وعلا حبيبه ﷺ أن يقول للكافرين : إنّي ما سألتكم أجراً على دعوتى لكم إلى صراط الله تعالى العزيز الحميد. ما أجرى إلاّ على الله تعالى. إنّه عزّ وجلّ على كلّ شيءٍ شهيد، لأنّه قد أحاط بكلّ شيءٍ علما.

وفي الآية الكريمة الثّالثة يأمر الحقّ جلّ وعلا حبيبه ﷺ أن يقول للكافرين : إنّ ربّي جلّ وعلا يُنْزل الوحي من السّماء فيقذفه إلى رسوله محمّد ﷺ. إنّه عزّ وجلّ علاّم الغيوب، المحيط علماً بكلّ ما غاب عن الخلائق ممّا هو كائنٌ إلى يوم الدّين.

وفي الآية الكريمة الرّابعة يأمر الحقّ جلّ وعلا حبيبه ﷺ أن يقول للكافرين : قد جاء الحقّ ودين الإسلام وذهب الباطل والكفر. إنّ الباطل لا ينشىء خلقاً جديداً، ولا يبعث من مات وغدا تراباً وعظاماً ورفاتاً.

وفي الآية الكريمة الخامسة يأمر الحقّ جلّ وعلا حبيبه ﷺ أن يقول للكافرين : إن ضللت على طريق الهدى والرّشاد فإنّما أضلّ على نفسى لأنّ ضرر الضّلال مرتدٌ عليّ. وإن اهتديت إلى الصّراط المستقيم فبسبب ما يوحى إليّ ربى

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٧٢.

عزّ وجلّ، من قرآن كريم وسنّة مطهّرة، مبيّنة للكتاب العزيز. إنّه جلّ وعلا سميعٌ لا يغيب عنه صوت، ولا تصعب عليه لغة، قريبٌ، أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، يعلم ما توسوس به نفسه، ويجمجم به ضميره. إنّ الله تعالى لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، ويعلم من ضلّ ومن اهتدى، وسيجازى كلاً بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ.

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن
مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن
مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ
بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ
كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾

ولو ترى إذ فزعوا : ولو ترى يا محمّد إذ فزعوا[1] يوم القيامة حين خرجوا من قبورهم[2].

فلا فوت : لا هرب[3] ولا نجاة[4] ولا سبيل حينئذٍ أن يفوتوا بأنفسهم أو يعجزونا هرباً وينجوا من عذابنا[5].

وأخذوا من مكانٍ قريب : أي القبور[6].

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٧٢.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٧٣.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٧٣.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٧٣.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٧٣.

(٦) الجلالين.

وقالوا آمنّا به : آمنّا بالله وبكتابه وبرسوله(١) .

وأنّي لهم التّناوش من مكانٍ بعيد : وكيف لهم تعاطى الإيمان وقد بعدوا عن محلّ قبوله وصاروا إلى الدّار الآخرة(٢) . وأنّى لهم التّناول لذلك(٣) .

وقد كفروا به من قبل: وقد كفرو بالله تعالى وبمحمّد ﷺ وبما جاءهم به من عند الله(٤) .

ويقذفون بالغيب من مكان بعيد : ويقذفون بالظّنّ(٥) وبما غاب علمه عنهم غيبةً بعيدةً حيث قالوا في النّبيّ ساحر شاعر كاهن، وفي القرآن سحر شعر كهانة(٦) .

وحيل بينهم وبين ما يشتهون : من الإيمان والرّجوع إلى الدّنيا ليتوبوا(٧) .

كما فعل بأشياعهم : الأشياع جمع شيع، وشيع جمع شيعة، فأشياع جمع الجمع(٨) .

ولو ترى يا محمّد إذ فزع المشركون يوم القيامة حين خرجوا من قبورهم فلا هرب منّا ولا نجاة لرأيت أمراً فظيعاً، وألْقي القبض عليهم من قبورهم وهو المكان القريب.

وبعد فوات الأوان قالوا آمنّا بالله تعالى وبما أرسل من رسولٍ وأنزل من كتاب وكيف لهم تعاطى الإيمان وتناوله في غير زمانه ومكانه، وكيف ينفعهم

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٧٣.

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٥١٥.

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٥١٥.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٧٥.

(٥) تفسير ابن كثير ٦/ ٥١٦.

(٦) الجلالين.

(٧) انظر تفسير الطّبرى ٢٢/ ٧٥.

(٨) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٧٥.

الإيمان في الآخـــرة حيث الجزاء ولا عمل، وكفـروا في الحياة الدّنيا حيث العمل ولا جزاء!.

لقد كـفروا بالله تعالى من ذى قـبل وبما أنزل من وحي وقذفـوا بالغيب من مكان بعيد ورجموا بالظّنون في شـأن خطير، وتطاولوا على مقام الرّسول الكريم، فزعموا أنّه ساحرٌ وشاعرٌ وكاهنٌ ومجنون، وأنّ القرآن الكريم بناءً على ذلك سحرٌ وشعرٌ وكهانة وكلام مجنون.

لد أعلن الكافرون الإيمان وتمنّوا أن يُـقْبل منهم إيمانهم فحـيل بينهم وبين ما يشتـهون، وتمنّوا أن يعـودوا إلى الحياة الدّنيـا كي يعملوا صـالحاً غيـر الّذى كانوا يعملون من سوءٍ فحيل بينهم وبين ما يشتـهون كذلك. لقد كان حظّ كافرى الأمّة المحمّديّة في الحيلولة بينهم وبين ما يشتهـون كحظّ كافرى الأمم السّابقة. لقد كانوا جميعاً من البعث ومن رسل الله تعالى ومـا خصّهم به من وحيٍ في شكٍّ كبيرٍ بلغ حدّ الرتياب.

إنّ مصيرهم جميعاً النّار وبئس القرار. والعياذ بالله تعالى.

•• تعقيب :

نستطيع أن نقول إنّ المحور الّذى تدور حوله سورة سبأ المكّيّة الكريمة البعث بعد الموت الّذى تحاول السّورة الكريمة إقناع كفّار مكّة به والعمل من أجله. وإذا كان هذا المحور مشتركاً بين الكثير من السّور المكّيّة، وكان لكلّ سورةٍ من سور القرآن الكريم خصوصيّتها فإنّ خصوصيّة سورة سبأ أنّها تسير في خطّين متوازيين، يُعنَى أحدهما بالحياة الأولى ويُعنَى آخرهما بالحياة الآخرة. وذلك في ضوء الآية الكريمة الأولى الّتى تقرّر أنّ الحمد لله تعالى في الأولى والآخرة، وفي ضوء القول على ألسنة الكافرين في الآية الكريمة الثّالثة : ﴿لا تأتينا السّاعة﴾ وكأنّ كلاً من محور السّورة الكريمة وطابعها المميّز لها يتّضحان في الآيات الكريمات الثّلاث الأُول من السّورة الكريمة. وفي هذه الآيات الكريمات الثّلاث إيماءٌ إلى ملك الله تعالى للكون، وخلقه له، وتدبيره شئونه، وعلمه عزّ وجلّ المحيط بكلّ ذرّة من ذرّات هذا الكون. قال تعالى(١) : ﴿الحمد لله الّذى له ما فى السّماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير. يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السّماء وما يَعْرُج فيها. وهو الرّحيم الغفور. وقال الّذين كفروا لا تأتينا السّاعة قل بلى وربّى لتأتينّكم عالم الغيب لا يَعْزُبُ عنه مثقال ذرّةٍ في السّماوات ولا في الأرض ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ إلاّ في كتاب مبين﴾.

وبشأن محور السّورة الكريمة وطابعها المميّز لها وإبراز السّورة الكريمة محورها وطابعها نودّ أن نتحدث عن كلّ ذلك في هيئة نقاط :

١ - إذا كانت الآيات الثّلاث الكريمات الأُول تتضمّن محور السّورة الكريمة وتومىء إلى طابعها الخاصّ بها، فإنّ الآيات الثّلاث الكريمات التّاليات تشير إلى مواقف ثلاثة من دعوة المصطفى ﷺ النّاس إلى صراط العزيز الحميد. هنالك المؤمنون، ويشملهم القول : ﴿ليجزى الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات. أولئك لهم مغفرةٌ ورزقٌ كريم﴾ وهنالك الكافرون الصّادّون عن سبيل الله تعالى، ويشملهم القول : ﴿والّذين سَعَوْا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذابٌ من رجزٍ أليم﴾

(١) سورة سبأ ١-٣.

وهنالك الّذين أوتوا العلم من أهل الكتاب الّذين آمنوا بمحمّدٍ ﷺ إذا كانت الآية الكريمة السّادسة مدنيّةً وفق رأي بعض العلماء، أو هنالك الّذين أوتوا العلم الوهبيّ من أصحاب محمّدٍ ﷺ. ويشمل هذا الفريق أو ذاك القول : ﴿ويرى الّذين أوتوا العلم الّذى أنزل إليك من ربّك هو الحقّ ويهدى إلى صراط العزيز الحميد﴾ إنّنا بصدد مواقف ثلاثة من المصطفى ﷺ ومن معجزته الكبرى الخالدة القرآن الكريم. وإنّ السّورة الكريمة لتتحدّث عن المصطفى ﷺ والمؤمنين والكافرين إضافة إلى حديثها في محورها وطابعها الخاصّ بها، كما أنّها تهدف إلى تسلية المصطفى ﷺ، وتبشير المؤمنين، وإنذار الكافرين.

٢ - تتحدّث الآيات الكريمات الثّلاث التّاليات (٧-٩) عن الكافرين من زاوية المحور وهو قيام السّاعة الّذى ينكرونه. وتبدأ أولى الآيات الكريمات الثّلاث بالقول : ﴿وقال الّذين كفروا﴾ وهو القول الّذى بدأت به الآية الكريمة الثّالثة، وهو كذلك القول الّذي سوف تبدأ به الآية الكريمة الحادية والثّلاثون. وهذه هي الآيات الكريمات الثّلاث. قال تعالى(١) : ﴿وقال الّذين كفروا هل ندلّكم على رجلٍ ينبّئكم إذا مزّقتم كلّ ممزّقٍ إنّكم لفى خلقٍ جديد. أفترى على الله كذباً أم به جنّة. بل الّذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضّلال البعيد. أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السّماء والأرض. إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نُسْقِطْ عليهم كِسَفاً من السّماء. إنّ في ذلك لآيةً لكلّ عبدٍ منيب﴾.

٣ - تتحدّث الآيات الكريمات الخمس التّاليات (١٠-١٤) عن داود وابنه سليمان عليهما السّلام. لقد آتى الله تعالى داود عليه السّلام منه عزّ وجلّ فضلاً، نبوّةً وكتاباً وعلماً، وحُسْنَ صوت، وألان له جلّ وعلا الحديد، وعلّمه صنع الدّروع السّابغات. وقد أُمر آل داود عليه السّلام بأن يعملوا صالحا. وسخّر الله تعالى لسليمان عليه السّلام الرّيح العاصفة والرّخاء، وأجرى له عين النُّحاس، وهي المادّة الّتى تدخل في الحديد بقوّة لصُنْع السّلاح، وسخّر له الجنّ. وقد أُمر آل داود عليه السّلام بأن يعملوا شكراً لله تعالى. ولمّا كان من الجنّ من يزعم أنّه يعلم

---

(١) سورة سبأ ٧-٩.

الغيب فإنّ السّورة الكريمة تثبت كذب هؤلاء الزّاعمين. إنّ سليمان عليه السّلام يموت ولا تعلم الجنّ بموته وتلبث في العذاب المهين والعمل الشّاقّ حتّى تأكل الأرضة العصا الّتي كان يتكىء عليها سليمان عليه السّلام قائماً يصلّى في المحراب فتكسر العصا ويسقط عليه السّلام وتعلم الجنّ وقتها بموته عليه السّلام. إنّ الله تعالى يعلم وَحدَه لا شريك له الغيب. وقد أكّدت السّورة الكريمة هذا المعنى مراراً. ونستطيع أن نفهم أنّ حديث السّورة الكريمة عن داود وابنه سليمان عليهما السّلام تسليةٌ غير مباشرةٍ للمصطفى ﷺ. قال تعالى (١) : ﴿ولقد آتينا داود منّا فضلاً. يا جبالُ أوّبي معه والطير وألنّا له الحديد. أن اعمل سابغات وقدّر في السّرد واعملوا صالحاً. إنّي بما تعملون بصير. ولسليمانَ الرّيح غدوّها شهرٌ ورواحها شهرٌ وأسلنا له عين القِطْر. ومِنَ الجنّ من يَعْمَل بين يديه بإذن ربّه. ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السّعير. يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفانٍ كالجواب وقدورٍ راسياتٍ اعملوا آل داود شكرا. وقليلٌ من عبادى الشّكور. فلمّا قضينا عليه الموتَ ما دلّهم على موته إلاّ دابّة الأرض تأكل مِنسأَته. فلمّا خرّ تبيّنت الجنّ أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾.

٤ - تحدّثت الآيات الكريمات السّتّ التّاليات (١٥-٢١) عن سبَإٍ في اليمن الّذين سُمُّوا وسمّيت بلادهم باسم جدّهم. إنّ أوجه الشّبه كثيرةٌ بين سبأٍ في اليمن وبين قريشٍ في مكّة المكرّمة. لقد أنعم الله تعالى على الفريقين بالهَدْيِ السّماويّ وبالنّعم الغامرة والطّرق الآمنة فبدّل الفريقان نعمة الله تعالى كفراً فمزّق الله تعالى سبأً كلَّ ممزَّق وجعلهم أحاديث المسافرين والمقيمين. وتوشك أن تكون نهاية كفّار مكّة مماثلةً لنهاية سبأ الّذين أنعم الله تعالى عليهم كما أنعم على كفّار مكّة بالآلاء العظيمة والمنن الجسيمة ليعلم عزّ وجلّ علم ظهور من يؤمن بالآخرة ممّن هو منها في شكّ. ويلاحظ عناية الآية الكريمة الأخيرة بالسّاعة الّتى قال كفّار مكّة عنها إنّها لا تأتيهم. قال تعالى(٢) : ﴿لقد كان لسبأٍ في مسكنهم آية. جنّتان عن يمينٍ

(١) سورة سبأ ١٠-١٤.

(٢) سورة سبأ ١٥-٢١.

وشمال. كلوا من رزق ربّكم واشكروا له. بلدةٌ طيّبةٌ وربٌّ غفور. فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العَرِم وبدّلناهم بجنّتيهم جنّتين ذواتي أُكُلٍ خَمْطٍ وأثلٍ وشيءٍ مِنْ سدرٍ قليل. ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلاّ الكفور. وجعلنا بينهم وبين القُرى الّتي باركنا فيها قُرىً ظاهرةً وقدّرنا فيها السَّير سيروا فيها ليالي وأيّاماً آمنين. فقالوا ربّنا باعِدْ بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزّقناهم كلَّ ممزَّق. إنّ في ذلك لآياتٍ لكلّ صبّارٍ شكور. ولقد صدّق عليهم إبليس ظنّه فاتّبعوه إلاّ فريقاً من المؤمنين. وما كان له عليهم من سلطانٍ إلاّ لنعلم من يؤمن بالآخرة ممّن هو منها في شكّ وربّك على كلّ شيءٍ حفيظ﴾.

٥ – يتحوّل السّياق إلى الحديث عن مشركي مكّة فيقرّر في الآيتين الكريمتين الثّانية والعشرين والثّالثة والعشرين عجز الآلهة المزعومة في الحياة الأولى فهي لا تملك مثقال ذرّة في السّماوات ولا في الأرض على سبيل الاستقلال أو المشاركة، وهي لا تنفع عابديها يوم القيامة. قال تعالى[1] : ﴿قل ادعو الّذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرّةٍ في السّماوات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شِرْكٍ وماله منهم من ظهير. ولا تنفع الشّفاعة عنده إلاّ لمن أذن له. حتى إذا فُزّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربّكم قالوا الحقّ وهو العليّ الكبير﴾ ثمّ تأتي أربع آياتٍ كريمات تبدأ على غرار أولى الآيتين الكريمتين بجملة : ﴿قُلْ﴾ خطاباً للمصطفى ﷺ. والآيات الكريمات الأربع في أدب الحوار والدّعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة. قال تعالى[2] : ﴿قُلْ من يرزقكم من السّماوات والأرض قل الله. وإنّا أو إيّاكم لعلى هدىً أو في ضلالٍ مبين. قُلْ لا تُسْألون عمّا أجرمنا ولا نُسْأل عمّا تعملون. قُلْ يجمع بيننا ربّنا ثمّ يفتح بيننا بالحقّ وهو الفتّاح العليم. قل أروني الّذين ألحقتم به شركاء كلاّ. بل هو الله العزيز الحكيم﴾ ومن البيّن أنّ الحديث يشمل الحياتين الأولى والآخرة.

وبانتهاء الاية الكريمة السّابعة والعشرين ينتهي النّصف الأوّل من السّورة

---

(١) سورة سبأ ٢٢ و ٢٣.

(٢) سورة سبأ ٢٤-٢٧.

الكريمة الّتي تتألّف من أربع وخمسين آيةً كريمة. وفي الآية الكريمة الثّامنة والعشرين يبيّن الحقّ عزّ وجلّ في هذه السّورة الكريمة المكّيّة الّتي نزلت قبل الهجرة عالميّة الرّسالة المحمّديّة. وعليه فرسالة محمّد بن عبد الله ﷺ عالميّةٌ منذ فجرها. قال تعالى(١) : ﴿وما أرسلناك إلاّ كافّةً للنّاس بشيراً ونذيراً ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون﴾.

ثمّ يتحوّل السّياق للحديث عن استبطاء الكافرين العذاب الّذي وُعدوا به يوم القيامة ويلقّن المصطفى ﷺ الرّدّ عليهم في الآية الكريمة الّتي تبدأ بجملة : ﴿قُلْ﴾ على غرار العديد من الآيات الكريمات في السّورة الكريمة. قال تعالى(٢) : ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين. قل لكم ميعاد يومٍ لا تستأخرون عنه ساعةً ولا تستقدمون﴾ وواضحٌ علاقة الآيتين الكريمتين بيوم القيامة الّذي لا ريب فيه.

ثمّ يتحوّل السّياق إلى الحديث عن إعلان الّذين كفروا عن عدم إيمانهم بالقرآن الكريم وبالّذي قبله من الكتب السّماويّة كالتّوراة والإنجيل لإثبات كلّ هذه الكتب السّماويّة البعث بعد الموت. ويلاحظ ابتداء الآية الكريمة على غرار الآيتين الكريمتين الثّالثة والسّابعة بالقول : ﴿وقال الّذين كفروا﴾ ثمّ يكون التّصوير للحوار المستفيض يوم القيامة بين الأتباع المستضعفين والمتبوعين المستكبرين. وهكذا يكون حديث الكافرين عن الكتب السّماوية من زاوية إثباتها يوم القيامة الّذي ينكرونه، ومن زاوية الغبن الأكيد الّذي يكون فيه الفريقان الخاسران. قال تعالى(٣) : ﴿وقال الّذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالّذي بين يديه. ولو ترى إذ الظّالمون موقوفون عند ربّهم يَرْجِعُ بعضهم إلى بعضٍ القول يقول الّذين استُضْعِفوا للّذين استكبروا لولا أنتم لكنّا مؤمنين. قال الّذين استكبروا للّذين استضعفوا أنحن

---

(١) سورة سبأ ٢٨.

(٢) سورة سبأ ٢٩ و ٣٠.

(٣) سورة سبأ ٣١-٣٣.

صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين. وقال الّذين استُضعفوا للّذين استكبروا بل مكر الّليل والنّهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا. وأسرّوا النّدامة لمّا رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الّذين كفروا. هل يُجْزَوْنَ إلاّ ما كانوا يعملون﴾.

٦ - إذا كان حديث السّورة الكريمة من ذى قبل عن داود وابنه سليمان عليهما السّلام تسليةً غير مباشرةٍ للنّبيّ ﷺ، فإنّ هذه التّسلية تأخذ في القسم الأخير من السّورة الكريمة أكثر من صورة.

في الآيات الكريمات (٣٤-٣٩) تتحدّث السّورة الكريمة عن الأمم السّابقة المكذّبة، فليس كفّار مكّة بِدْعاً من الأمم، وليس محمّدٌ ﷺ بِدْعاً من الرّسل. ويشمل الحديث الكافرين الصّادّين عن سبيل الله وعقابهم، والمؤمنين المنفقين ابتغاء مرضاة الله تعالى وثوابهم. قال تعالى[1] : ﴿وما أرسلنا في قريةٍ من نذيرٍ إلاّ قال مترفوها إنّا بما أرسلتم به كافرون. وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذّبين. قل إنّ ربيّ يبسط الرّزق لمن يشاء ويقدر ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون. وما أموالكم ولا أولادكم بالّتي تقرّبكم عندنا زلفى إلاّ مَنْ آمَنَ وعَمِلَ صالحاً فأولئك لهم جزاء الضّعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون. والّذين يسْعَوْن في آياتنا معاجزين أولئك في العذاب محضرون. قل إنّ ربّى يبسط الرّزق لمن يشاء من عباده ويقدر له. وما أنفقتم من شيءٍ فهو يُخْلِفُهُ وهو خير الرّازقين﴾.

وفي الآيات الكريمات (٤٠-٤٢) تتحدّث السّورة الكريمة عن عذاب الله تعالى يوم القيامة لمشركى العرب الّذين زعموا أنّ الملائكة بنات الله تعالى وعبدوا الصّور الّتي زعموا أنها للملائكة. قال تعالى[2] : ﴿ويوم يحشرهم جميعاً ثمّ يقول للملائكة أهؤلاء إيّاكم كانوا يعبدون. قالوا سبحانك أنت وليّنا من دونهم بل كانوا يعبدون الجنّ أكثرهم بهم مؤمنون. فاليوم لا يملك بعضكم لبعضٍ نفعاً ولا ضرّاً ونقول للّذين ظلموا ذوقوا عذاب النّار الّتى كنتم بها تكذّبون﴾.

---

(١) سورة سبأ ٣٤-٣٩.

(٢) سورة سبأ ٤٠-٤٢.

والآيات الكريمات (٤٣-٤٥) تبيّن إصرار كفّار مكّة على عدم الإصغاء للقرآن الكريم واتّهامه عليه الصّلاة والسّلام بأنّه رجلٌ يريد أن يصدّهم عمّا كان يعبد آباؤهم، وبأنّ القرآن الكريم كذبٌ محض، وسحرٌ مبين، وبأنّ الرّسول الكريم تبعاً لذلك ساحرٌ وما إلى ذلك. لقد قال الكافرون بغير علم، وما بلغوا في مجال القوّة عُشْرَ ما آتى الله تعالى الكافرين السّابقين من قوّة. قال تعالى(١) : ﴿وإذا تُتْلَى عليهم آياتُنا بيّنات قالوا ما هذا إلاّ رجلٌ يريد أن يصدّكم عمّا كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلاّ إفكٌ مفترى. وقال الّذين كفروا للحقّ لمّا جاءهم إن هذا إلاّ سحرٌ مبين. وما آتيناهم من كتبٍ يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير. وكذّب الّذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذّبوا رسلي فكيف كان نكير﴾.

وفي الآيات الكريمات الخمس التّاليات (٤٦-٥٠) أوامر للمصطفى ﷺ بأن يقول لكفّار مكّة بعض النّصائح والتّوجيهات النّافعة لهم في الأولى والآخرة. علماً بأنّ كلّ آية كريمة تبدأ بجملة : ﴿قل﴾ خطاباً للمصطفى ﷺ. قال تعالى(٢) : ﴿قل إنّما أعظكم بواحدة. أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثمّ تتفكّروا. ما بصاحبكم من جِنّة. إن هو إلاّ نذيرٌ لكم بين يدى عذابٍ شديد. قل ما سألتكم من أجرٍ فهو لكم إن أجرى إلاّ على الله وهو على كلّ شيءٍ شهيد. قل إنّ ربّى يقذف بالحقّ عَلاّم الغُيوب. قل جاء الحقّ وما يبدىء الباطل وما يعيد. قل إن ضللت فإنّما أضلّ على نفسى وإن اهتديت فبما يوحى إلىّ ربّى. إنّه سميعٌ قريب﴾.

وتختم سورة سبأ المكّيّة الكريمة بالحديث عن يوم القيامة الّذى يفزع منه الكافرون، ويؤخذون فيه من قبورهم إلى الحساب فالعقاب. وفي هذا اليوم لا ينفعهم إيمانهم وقد كفروا في الحياة الدّنيا، ولا يتحقّق ما يشتهون من عودة إلى الحياة الدّنيا مرّةً أخرى كي يعملوا صالحاً، تماماً كما لم يتحقّق الاشتهاء ذاته من

---

(١) سورة سبأ ٤٣-٤٥.

(٢) سورة سبأ ٤٦-٥٠.

الكافرين السّابقين. لقد كانوا في الحياة الدّنيا في شكٍّ من يوم القيامة إلى حدّ الارتياب. قال تعالى[1] : ﴿ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكانٍ قريب. وقالوا آمنّا به وأنّى لهم التّناوش من مكانٍ بعيد. وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكانٍ بعيد. وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فُعِل بأشياعهم من قبل. إنّهم كانوا في شكٍّ مريب﴾.

وهكذا يتبيّن أنّ محور سورة سبأ المكّيّة الكريمة هو البعث بعد الموت. وتحقق السّورة الكريمة هذا المحور أو الهدف بحديثها المستفيض عن الفئات المختلفة من البشر من زاويتي الإيمان والكفر، الثّواب والعقاب، الخلود في جنّات النّعيم أو في نار الجحيم.

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين.

مكّة المكرّمة
بعد عصر يوم الاثنين ٣٠/ ٧/ ١٤٢٠هـ
الموافق ٨/ ١١/ ١٩٩٩م.

كتبه الفقير إلى عفو ربّه
د. حسن محمّد باجودة
أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانيّة،
جامعة أمّ القرى، بمكّة المكرّمة

(١) سورة سبأ ٥١-٥٤.

ثـــالثاً

سورة فاطر

سُورَةُ فَاطِرٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي
أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ
وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَا أَيُّهَا
النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم
مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾
وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ
﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ
وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ
عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ
كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم
مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ۖ
فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ

عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ
ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ
مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ
إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ
يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ
﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ
وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ
وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾
وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا
مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ
حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ
ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى
لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ
تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن

تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ
وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ
(١٤) ۞ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ
الْحَمِيدُ (١٥) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦)
وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن
تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ
إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ ۚ
وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (١٨)
وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلَا الظُّلُمَٰتُ وَلَا النُّورُ
(٢٠) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَآءُ وَلَا الْأَمْوَٰتُ ۚ
إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ
أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ
أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَٰبِ
الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا
أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا
وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ
مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ
إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ
وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ
وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾
وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ
يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ
ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم
مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ
ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ
فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾
وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ

شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا
فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ
نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ
عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ
فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ
أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ
فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ
غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾
هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا
يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ
كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ
بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ

إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن
جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ
مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ
وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ
ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا
﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾
وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ
ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ
فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾

بين يدي التفسير

(١)

« الله تعالى المستحقّ أن يُعْبَد وحده هو الخالق المدبّر الرّحيم المحيي المميت السّميع العليم الخبير»

الآيات (١ ـ ١٤)

هذا القسم من سورة فاطر المكّيّة الكريمة يومىء إلى معانى مجموعة من أسماء الله تعالى الحُسْنى. ومعروفٌ أنّ لفظ الجلالة : «الله» هو عظيم أسماء الله تعالى، وبقيّة الأسماء الحسنى التّسعة والتّسعين كما جاء عددها في الحديث الصّحيح هي صفات لله تعالى الواحد الأحد. ومعروفٌ كذلك أنّ : «الرّحمن» عظيم صفات الله تعالى. ومن الصّفات البارزة في القسم بل في السّورة الكريمة ثنائيّة المعانى. إنّ الحمد لله تعالى فاطر السّماوات والأرض وموجدهما على غير مثالٍ سابق، جاعل الملائكة الّتى تدبّر الأمر بإذنه أصحاب أجنحة مختلفة العدد. فمنها ما له جَناحان اثنان، ومنها ما له ثلاثة أجنحة، ومنها ما له أربعة أجنحة. والله تعالى يزيد في الخلق ما يشاء، فعدد أجنحة الملائكة يزيد بإرادة الله تعالى، والله تعالى يخلق في هذا الكون ما يريد لحكمةٍ بالغةٍ وحجّةٍ دامغة. إنّ الله تعالى على كلّ شيء قدير.

إنّ الله سبحانه وتعالى فاطر السّماوات والأرض وجاعل الملائكة رسلا. وإنّ الله تعالى يزيد في الخلق ما يشاء، وهو على كل شيءٍ قدير. وهكذا تتجلّى ثنائيّة المعانى بوضوح.

والله تعالى واسع الرحمة، وما يفتح الله تعالى من رحمةٍ فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده عزّ وجلّ. والله تعالى هو العزيز في ملكه الحكيم في صنعه. إنّ الرّحمة يرسلها الله تعالى على من يشاء ويمسكها عمّن

يشاء، وهو العزيز الحكيم. وبالاضافة إلى المعاني الثّنائية تأتي الرّحمة بصريح اللّفظ دليلاً على رحمة الله تعالى الواسعة ومن ثمّ روعي اللّفظ وكان التّأنيث في القول : ﴿ما يفتح الله للنّاس من رحمةٍ فلا ممسك لها﴾ وبشأن الإمساك تُضْمَر الرّحمة فيراعى اللّفظ ويأتي التّذكير وذلك في القول : ﴿وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾.

والله تعالى هو خالق النّاس ورازقهم فعليهم أن يؤمنوا جميعاً لا أن يكون منهم مؤمنٌ ومنهم كافر. ويسلّي السّياق المصطفى ﷺ. فكما كذّب كفّار مكّة المصطفى ﷺ كذّب الكفّار السّابقون رسل الله تعالى إليهم، وأنكروا كذلك يوم القيامة. أمّا الّذي انحرف بالنّاس عن سواء السّبيل فالنّفس الأمّارة بالسّوء الّتي غرّتها الحياة الدّنيا والشّيطانُ الرّجيم. إنّ حزب الشّيطان الرّجيم له عذابٌ شديد، وإنّ الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات لهم جنّات النّعيم. وهكذا يكون النّاس فريقين من رسل الله تعالى، فهناك المؤمنون حزب الله تعالى، وهناك الكافرون حزب الشيطان الرّجيم. وهذا الفريق الضّالّ قد زيّن الشّيطان الرّجيم له سوء عمله فرآه حسنا. فعلى المصطفى ﷺ ألاّ يقتل نفسه حزناً لإعراضهم عن الصّراط المستقيم. وهنالك الفريق المهتدي الّذي يعمل الصّالحات وهو يخشى الله تعالى ألاّ يقبل منه تلك الأعمال الصّالحة بمقياس الإسلام.

والله تعالى هو الّذي أرسل الرّياح فتثير سحاباً فساقه إلى الأرض الميتة فأحياها، كذلك يحيي الله تعالى الأموات بالبعث. وما أجمل صورة السّحب الّتي تنشئها الرّياح بإرادة الله تعالى والّتي تبدو رائعةً في أسلوب الالتفات : ﴿فتثير سحاباً﴾ وعند الله تعالى العزة في الأولى والآخرة. وإليه عزّ وجلّ يصعد الكلم الطّيّب، والعمل الصّالح يرفعه ويقبله. والّذين يمكرون السّيّئات لهم عذابٌ شديدٌ في الآخرة ويرتدّ عليهم مكرهم في الدّنيا. وهكذا تكون العزّة في الأولى والآخرة عند الله تعالى. والكلم الطّيّب يصعد إليه عزّ وجل والعمل الصّالح يقبله. والكافرون يمكرون والله تعالى يفسد مكرهم ويبطل كيدهم.

والله تعالى خلق أبانا آدم عليه السّلام من تراب، وجعل نسله من ماءٍ مهين.

ومن الماء المهين جعل عزّ وجلّ الزّوجين، الذكر والأنثى. وإنّ الله يعلم ما تحمل كلّ أنثى وما تضع، ويعلم ما يعمَّر من معمَّر وما يُنتقَص من عمر شخصٍ آخر غير معمَّر. إنّ كلّ ذلك يسيرٌ على الله تعالى فهو مدوّنٌ في كتاب.

والله تعالى أوجد البحرين العذب الفرات السّائغ شربه، والملح الأجاج غير المستساغ شربه، ومن البحرين نأكل السّمك ونستخرج الزّينة في هيئة اللّؤلؤ والمرجان. والفلك تجرى في الماء الغزير الواسع لنبتغى من فضله عزّ وجلّ ونشكر لله تعالى نعمه. واللّيل يدخل بإرادة الله تعالى في النّهار فيطول النّهار ويقصر اللّيل، والنّهار يدخل في اللّيل فيطول اللّيل ويقصر النّهار. والله تعالى سخّر الشّمس والقمر مستمرّين في سيرهما إلى يوم القيامة. والله تعالى مالك كلّ شيءٍ والآلهة المزعومة ما تملك من قشرة نواة. والله تعالى هو السّميع المجيب الخبير، والآلهة المزعومة لا تسمع، ولو فرض أنّها سمعت لا يستجيب، ويوم القيامة تتبرأ من عابديها. إنّ عليكم أيّها النّاس أن تهجروا الشّرك وأن تعبدوا الله تعالى وحده لا شريك له، فعنده وحده دون سواه عزّ الدّنيا والآخرة.

وواضحٌ ثنائيّة المعانى الّتى تصبغ الآيات الكريمات بألوانها البديعة.

(٢)

«الله تعالى هو الغنيّ الحميد، والرّسول ﷺ بشيرٌ ونذير، وثواب المؤمنين، وعقاب الكافرين»

الآيات (١٥ ـ ٢٦)

بيّنت آيات القسم السّابق معنى العديد من أسماء الله تعالى الحُسْنى. وتتحدّث آيات هذا القسم التّالى عن معنى بعض أسماء الله تعالى الحسنى وعن الرّسول ﷺ بقصد التّسرية عنه، وعن المؤمنين وثوابهم، والكافرين وعقابهم.

يخاطب السّياق النّاس أجميعن ويبيّن لهم بصريح التّعبير أنّهم هم الفقراء إلى الله تعالى الّذى لا يستغنون عنه عزّ وجلّ طرفة عين، وأنّه جلّ وعلا هو الغنيّ عن كل خلقه المحمود من قِبَل الخلق على نعمه الّتي لا تُحْصَى عليهم، والمحمود على كلّ حال. إن يشأ يذهبكم الله تعالى يا أيّها النّاس الكافرون ويأت بخلقٍ جديدٍ لم يكونوا أمثالكم لفعل، لأنّه عزّ وجلّ ليس محتاجاً إليكم أبداً. إنّ الإتيان بخلقٍ جديدٍ مؤمنٍ تقيّ ليس عزيزاً على الله تعالى ولا صعبا.

وفي يوم القيامة لا تحمل نفسٌ آثمةٌ حمْل نفسٍ آثمة أخرى. وإن تدع نفسٌ مثقلةٌ بالذّنوب إلى حِمْلها الثّقيل كي يُحْمَلَ منه شيء لاً يُحْمَل منه شيء، ولو كان المطلوب منه المساعدة ذا القربى من أبٍ أو ابنٍ أو أخٍ أو أختٍ أو زوج ومن إليهم. وأنت يا محمّد، يا من توشك أن تُهْلِكَ نفسك حزناً لإعراضهم عن دعوتك، عليك البلاغ وحده، وإنّما ينفع إنذارك أولئك الّذين يخشون ربّهم عزّ وجلّ ولم يروه تصديقاً منهم لما أوحى الله تعالى إليك من كتابٍ كريمٍ وسنّةٍ مطهّرة. وهؤلاء الّذين صدّقوا الله تعالى ورسوله ﷺ وأعلنوا الشّهادتين أقاموا الصّلاة عماد العبادات البدنيّة، وآتوا الزّكاة عماد العبادات الماليّة، وزكّوا أنفسهم وطهّروها من دنس الذّنوب والعيوب. إنّ الّذين يتزكّوْن إنّما يفعلون ذلك من أجل أنفسهم لأنّ ثواب التّزكية والتّطهير عائدٌ إليهم. وحينما يصير الخلائق إلى الله تعالى يوم القيامة يجازيهم.

والّذين يرجعون إلى الله تعالى إمّا أن يكونوا مؤمنين متّقين، وإمّا أن يكونوا كافرين فاجرين. وبطبيعة الحال لا يستوى المؤمنون أصحاب الجنّة والكافرون أصحاب النّار. إنّه لا يستوى الأعمى والبصير في مجال المحسوسات، كما لا يستوى أعمى البصيرة الكافر ونيّر البصيرة المؤمن. ولا تستوى الظّلمات والنّور في مجال المحسوسات، كما لا تستوى ظلمات الكفر ونور الإيمان في مجال المعنويّات. ولا يستوى في مجال المحسوسات المكان الظّليل الّذى لا تنفذ إليه أشعة الشّمس الخارقة، وريح السّموم الحارقة، والمكان الّذى تحرقه الشّمس بأشعّتها، وتلفحه ريح السّموم بحرارتها. ولا تستوى في مجال المعنويّات الجنّة بظلّها

الممدود، والنّار بلهبها المعهود. ولا يستوي في مجال المحسوسات الأحياء والأموات سكّان القبور. إنّ الله تعالى يُسْمِعُ سماع قبول من يشاء هدايته، وإنّك يا محمّد لا تُسْمِعُ سماع قبول من تريد هدايته، لأنّ هُدَى التّوفيق لله تعالى وَحْدَه دون سواه. وما أنت يا محمّد بمسمعٍ من في القبور. والمراد بالأحياء في مجال المعنويّات المؤمنون المتقون، وبالأموات الكافرون الصّادّون عن سبيل الله تعالى. إنّ المؤمنين أحياء لأنّهم حقّقوا الهدف الّذى خلقهم الله تعالى من أجله وهو إفراد الله تعالى بالعبادة، وإنّ الكافرين أمواتٌ سكّان القبور لأنّهم لم يحقّقوا الهدف الّذى خلقهم الله تعالى من أجله، وهو إفراده عزّ وجلّ بالعبادة. وما أنت يا محمّد إلاّ نذير، وعليك البلاغ وحده، وعلينا نحن الحساب. وفي هذا تسليةٌ له عليه الصّلاة والسّلام.

وبشأن الجنّة والمؤمنين تَقَدَّما في الآيتين الكريمتين في الذّكر على النّار والكافرين دليلاً على كرامة أصحاب الجنّة على الله تعالى وهوان أصحاب النّار.

والله تعالى أرسل محمّداً ﷺ بدين الحقّ بشيراً للمؤمنين المتّقين، ونذيراً للكافرين العاصين. وما من أمّة من الأمم السّابقة إلاّ وقد مضى فيها وسَلَف نذير. وإن يكذبك قومك يا محمّد مع ما جاءك من الله تعالى من معجزات واضحات، وتصديق لفحوى الرّسالات السّابقات وكتابٍ منير بيّن للطّريقة الّتى هيَ أقوم، فقد كذّب الّذين من قبلهم رسل الله تعالى إليهم الّذين سبق أن جاءوهم بالبيّنات، وبفحوى الكتب السّماوية، وبالكتاب المنير المبين الّذى يهدى للطّريقة الّتى هي أقوم.

وكما أهلك الله تعالى المكذّبين السّابقين، يوشك أن يُهْلِك كفّار مكّة إن لم يتوبوا ويؤمنوا ويعملوا صالحاً.

وواضحٌ المعاني الثّنائيّة في الآيات الكريمات. إنّ النّاس فقراء إلى الله تعالى، والله تعالى هو الغنيّ. والله تعالى الغنيّ محمودٌ على كلّ حال. والله تعالى الحميد لو شاء لأذهب الخلق الموجود وأتى بخلقٍ جديد، وليس ذلك على الله تعالى بصعبٍ ولا مستحيل. والنّفس الموقرة بالذّنوب لا تحمل ذنوب نفسٍ أخرى. وإن

تدع نفسٌ موقرةٌ بالذّنوب نفساً أخري كي تحمل شيئاً من حملها الثّقيل لا تفعل ولو كانت قريبةً لها لأنّ لكلّ نفسٍ ما يشغلها عن غيرها. وأنت يا محمّد إنّما ينفع إنذارك الّذين يخشون ربّهم ولم يروه، وأقاموا الصّلاة. وهؤلاء الّذين يطهّرون أنفسهم بالزّكاة وبكلّ أنواع المطهرّات ثواب التّزكية عائدٌ إليهم، والله تعالى الّذى عليه كلّ شيءٍ يسير، إليه مصير الخلائق يوم القيامة.

وما يستوى في المحسوسات والمعنويّات الأعمى والبصير، والظّلمات والنّور، والظّلّ والحَرور، والجنّة والنّار، والأحياء والأموات. والله تعالى يُسْمع من يشاء سماع قبول، ومحمّدٌ ﷺ لا يستطيع أن يُسْمِعَ أحداً سماع قبول، فكيف بسواه عليه الصّلاة والسّلام من المخلوقين، لأنّ هدى التّوفيق مِلْكٌ لله تعالى وحده دون سواه. والمراد بالأحياء المؤمنون عمّار بيوت الله تعالى، والمراد بالأموات الكافرون سكّان القبور. وما أنت يا محمّد إلاّ نذير، وما من أمّةٍ إلاّ وقد سلف فيها نذير. والله تعالى أرسلك يا محمّد بدين الحقّ مبشّراً المؤمنين بالجنّة، ومنذراً الكافرين بالنّار. وإن يكذبك قومك يا محمّد مع ما جئتهم به من آياتٍ وفحوى كتبٍ سماوية سابقة وكتابٍ منيرٍ مبينٍ يهدى للطّريقة الّتى هي أقوم، فقد كذّب السّابقون رسل الله تعالى إليهم، مع أنّهم جاءوهم بمثل ما جئت قومك به يا محمّد. لقد أخذتُ الكافرين السّابقين بعذابي وسوف آخذ الكافرين اللّاحقين بالعذاب المهين، إن لم يتوبوا ويؤمنوا ويعملوا صالحاً. فكيف ترى يا محمّد إنكاري الشّديد على الكافرين وأخذي الأكيد لهم.

(٣)

« اختلاف ألوان المخلوقات من دلائل قدرة الله تعالى، وثواب تلاوة القرآن الكريم والاهتداء بنوره»

الآيات (٢٧ ـ ٣٥)

يتحوّل السّياق إلى الحديث في بعض دلائل قدرة الله تعالى المحسوسة والمعنويّة المعمّقة للحقّ والخير والجمال. ألم تر يا محمّد بعين رأسك وقلبك، ألم تر أيّها الإنسان أنّ الله سبحانه وتعالى أنزل من السّماء ماءً جعل منه كلّ شيءٍ حيٍّ. ومِنْ الشّجر الكثير الّذى نبت بذلك الماء الواحد أخرج عزّ وجلّ ثمراتٍ مختلفاً ألوانها، تملأ العين لذّةً، والنّفس بهجةً، والصّدر انشراحاً، والقلب سرورا. وهذه الألوان المختلفة توجد أحياناً في الثّمرة الواحدة فكيف بالثّمرات المختلفة الأشكال والرّوائح والطّعوم. ومن الجبال المختلفة الألوان عروقٌ وطرقٌ فيها مختلفة الألوان. والنّاس والدّوابّ والأنعام مختلفة الألوان كذلك. وكلّ المخلوقات تحقّق بإذن الله تعالى الهدف المنوط بها، هذا إلى حظّها الموفور من الجمال، ولا يُستَثنَى في مجال الجمال أيّ مخلوق. وبذلك يحقّق كلّ مخلوقٍ كلاًّ من الحقّ والخير والجمال. وبإرادة الله تعالى ترتّب الحظوظ وفق هذا النّسق : الحقّ الخير الجمال. وبقدر إدراك البشر لهذه الحقائق يكون حظّهم من خشية الله تعالى، ولهذا كان العلماء هم الّذين يخشون الله تعالى على الحقيقة ويتّقونه حقّ التّقوى.

ويأتى على رأس العلماء أولئك الّذين يتلون كتاب الله تعالى حقّ تلاوته ويعملون الصّالحات ويجتنبون السّيّئات. وبقدر استمساك هذه الأمّة المحمّديّة بهدي الكتاب العزيز يكون حظّها من العزّة فى الأولى والآخرة.

إنّ الّذين يتلون الكتاب العزيز حقّ تلاوته وأقاموا الصّلاة أهم أركان الإسلام

في مجال العبادات البدنيّة بعد الشّهادتين، وآتوا الزّكاة، الرّكن الثّالث من أركان الإسلام، وتصدّقوا سراً، وأنفقوا ولم يسرفوا ولم يقتروا يرجون تجارةً رابحةً يوم القيامة عند الله تعالى. ليوفّيهم عزّ وجلّ ثواب أعمالهم ويزيدهم من فضله. إنّه جلّ وعلا غفورٌ للذّنوب شكورٌ لعباده على الطّاعات. والّذى أوحينا إليك يا محمّد من القرآن الكريم هو الحقّ من ربّ العالمين فاستمسك به يا محمّد أنت وقومك. وهذا الكتاب مصدّقٌ للكتب السّماويّة السّابقة ومهيمنٌ عليها وشاهدٌ بصحّتها حينما توافقه وببطلانها حينما تخالفه. إنّ الله تعالى بعباده لخبيرٌ ببواطنهم بصيرٌ بظواهرهم فلا يخفى عليه جلّ وعلا شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

ثمّ أعطى الله تعالى الأمّة المحمّديّة المصطفاة المجتباة هذا الكتاب العزيز وخصّها به من بين سائر الأمم. وهذه الأمّة لها ثلاثة مواقف من هذا الكتاب العزيز الّذى يهدى للطّريقة الّتى هي أقوم. إنّ منها الظّالم لنفسه الّذى غلبت سيّئاته حسناته ولم يشرك بالله تعالى شيئاً، وهذا الفريق يدخل الجنّة برحمة الله تعالى الواسعة. وإنّ منها المقتصد الّذى غلبت حسناته سيّئاته أو الّذى تساوت حسناته وسيّئاته وهم أهل الأعراف، وهذا الفريق يحاسب حساباً يسيراً بفضل الله تعالى. وإنّ منها السّابق بالخيرات وهذا يدخل الجنّة بغير حسابٍ بفضل الله تعالى الّذى تفضّل فقبل حسناته، ورفع عمله الصّالح إليه.

إنّ هؤلاء المؤمنين جميعاً يدخلون جنّات إقامة دائمة يُحَلَّون فيها من أساور من ذهب ويلبسون لؤلؤاً. أمّا لباسهم في الجنة فثيابٌ من حرير. وهكذا يَرْفُل المؤمنون يوم القيامة في جنّات النّعيم في ثياب الزّينة وحليّها الّتى كانت محرّمةً على المؤمنين في الحياة الدّنيا.

وقال المؤمنون في الجنّة الثّناء كلّه لله تعالى الّذى أذهب عنّا حزن الخوف من دخول النّار بإدخالنا الجنّة. إنّ ربّنا عزّ وجلّ لغفورٌ لذنوب التّائبين المستغفرين، شكورٌ لعباده أعمالهم الصّالحة. إنّ الله سبحانه وتعالى أنزلنا وأسكننا دار الإقامة الدّائمة من فضله وواسع رحمته. ولا يمسّنا في الجنة نصبٌ ولا تعب، ولا يمسّنا فيها عناءٌ ولا إعياء.

وما أوضح المعاني الثّنائيّة في القسم على غرار سائر الأقسام.

من الماء الواحد تخرج الثّمرات المختلفة الألوان. وفي الجبال عروقٌ مختلفة الألوان. والنّاس والدّوابّ والأنعام مختلفة الألوان. والعلماء أكثر خشيةً لله تعالى من سائر النّاس. والله تعالى عزيزٌ غفور. وانظر إلى الجملتين في الفعل المضارع والجملتين في الفعل الماضي في قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿إنّ الّذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصّلاة وأنفقوا ممّا رزقناهم سراً وعلانيةً يرجون تجارةً لن تبور﴾ والله تعالى يوفّي الصّالحين أجرهم ويزيدهم من فضله. والله تعالى غفورٌ شكور. والكتاب العزيز الموحى به من ربّ العالمين هو الحقّ، وهو مصدّقٌ للكتب السّماويّة السّابقة عليه. والله تعالى خبيرٌ بعباده بصير. والله تعالى أعطى الأمّة المحمّديّة الكتاب العزيز واصطفاها به. ومن هؤلاء ظالمٌ لنفسه ومنهم مقتصد. ومن هؤلاء سابقٌ بالخيرات بإذن الله تعالى. والسّبق بالخيرات هو الفضل الكبير من الله تعالى الكبير المتعال. وهناك جنّاتٌ تدخلها كلّ فئات الأمّة المحمّديّة برحمة الله تعالى أو بالحساب اليسير أو دون حساب. وذلك بمقدار حظّ كلّ فئة من عمل الصّالحات وتَفَضُّلِ الله تعالى بقبولها. والحلية في الجنّة نوعان، أساور ولؤلؤ. والثّياب في الجنّة حرير. وقال المؤمنون إنّ الثّناء كلّه لله تعالى، وهو الّذى أذهب عنّا حزن الخوف من دخول النّار. والله تعالى غفورٌ شكور. وإنّ دخول المؤمنين الجنّة تمّ بفضل الله تعالى. وفي الجنّة لا يمسّ المؤمنين تعبٌ ولا يمسّهم إعياء.

(٤)

«على الكافرين أن يؤمنوا بالله تعالى وبالرّسول ﷺ وإلاّ كان العذاب شديداً في الأولى والآخرة»

الآيات (٣٦ ـ ٤٥)

وبعد حديث القسم السّابق عن المؤمنين وبعض نعوتهم وثوابهم يتحدّث هذا

القسم التّالى عن الكافرين وبعض صفاتهم وعقابهم. إنّ الّذين كفروا بالله تعالى وبرسوله ﷺ لهم نار جهنّم لا يُقْضَى عليهم بالموت فيستريحوا ولا يخفّف عنهم من عذابها الشّديد. وهم يستغيثون ويعلو صراخهم ويتتابع قائلين يا ربّنا أخرجنا من النّار وأعدنا إلى الحياة الدّنيا كي نعمل صالحاً غير العمل السّيّىء الّذى كنّا نعمل. فيقال لهم : ألم ننعم عليكم بنعمنا العظيمة ومنها إمهالكم، ولم نعمّركم وقتاً يتّعظ فيه من تذكّر من أولى الأحلام والنُّهى، وجاءكم النّذير محمّد ﷺ بين يدي عذاب شديد. فذوقوا العذاب فما للمشركين من نصير. إنّ الله سبحانه وتعالى عالم غيب السّماوات والأرض، فلا يخفى عليه جلّ وعلا شيءٌ فيهما، إنّه عليمٌ بذات الصّدور وأعماق النّفوس. إنّه عزّ وجلّ يعلم من يبحث عن الحقّ فيهديه إليه ويشرح صدره للإسلام، ويعلم المتعنّت الّذي لا تنقصه الحجّة وهذا يزيده الله تعالى عمىً إلى عماه، ويزيد قلبه المنصرف عن الحقّ انصرافاً، ويدخله نار جهنّم خالداً فيها.

إنّ عليكم أيّها الكافرون أن تعتبروا بالكافرين السّابقين الّذين دمّر الله تعالى عليهم تدميرا، وإنّ الله تعالى هو الّذى جعل اللّاحقين يخلفون السّابقين. إنّ من يكفر فعليه وبال كفره، ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربّهم عزّ وجلّ إلاّ أشدّ المقت والاحتقار والبغض. ولا يزيد الكافرين كفرهم إلاّ خساراً في الأولى والآخرة.

قل يا محمّد لقومك المشركين : أرأيتم شركاءكم مع الله تعالى في العبادة الّذين تعبدونهم من دون الله تعالى أروني ماذا خلقوا من الأرض. أم أنّكم عبدتموهم لأنّهم شاركوا الله تعالى في خلق جزء من السّماوات أو أجزاء. أم أنّ الله تعالى أنزل عليهم كتاباً أذن لهم فيه بأن يشركوا الأصنام والأوثان مع الله تعالى في العبادة فهم على بيّنة من أمرهم وحجّة بهذا الكتاب وبرهان على شركهم. إنّ شيئاً من ذلك لم يحصل بل الحقيقة أنّه ما يَعِدُ المشركون بعضهم بعضاً بزعمهم أنّ الأصنام والأوثان تشفع لهم إلاّ غروراً من القول وباطلا. إنّ هذه الآلهة المزعومة لا تستطيع أن تخلق مجتمعةً ذبابةً واحدة رغم هوان الذّبابة وحقارتها فكيف بما

فوق ذلك، وكيف بالسّماوات والأرض. إنّ الله سبحانه وتعالى هو وحده خالق السّماوات والأرض، وهو وحده الّذي يمسك السّماوات والأرض أن تزولا من الوجود وتختفيا، أو أن تتحرّكا من مكانهما وتضطربا. ولئن زالت السّماوات والأرض بإذن الله تعالى ما أمسكهما من أحد من بعده. إنّ الله تعالى كان حليماً يمهل الكافرين والفاجرين كي يعودوا إلى سواء السّبيل، وكان غفوراً لمن استغفر وتاب وأناب. إنّ عليكم أيّها المشركون الّذين تعترفون بتوحيد الرّبوبيّة، فتعترفون - مثلاً - بأنّ الله تعالى هو الخالق المدبّر، أن تعترفوا بتوحيد الألوهيّة فتفردوا الله تعالى بالعبادة. إنّ توحيد الرّبوبيّة وحده لا ينفعكم أيّها المشركون.

ولا يكاد ينقضي العجب من المشركين الّذين أقسموا بالله تعالى العظيم غاية اجتهادهم في الأيمان بأنّهم إن جاءهم نذيرٌ ليكوننّ أهدى من إحدى الأمم السّابقة الّتي أرسل الله تعالى إليها رسله كاليهود والنّصارى. فلمّا جاء كفّار مكّة والعرب عامّةً محمّدٌ ﷺ النّذير لهم بين يدي عذاب يوم القيامة الشّديد ما زادهم مجيئه إلاّ نفوراً وإعراضاً، بباعث الكبر عن الانقياد لمحمّد ﷺ الّذي يدعوهم إلى عبادة الله تعالى والسّجود له عزّ وجلّ وحده دون سواه، وبباعث مكر العمل السّيّء وذلك بالصّدّ عن سبيل الله تعالى. ولا يُحيط العمل السّيّء إلاّ بأهله لأنّ وبال العاقبة مرتدٌّ إليهم. وهؤلاء الكافرون ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله تعالى وستكون عليهم حسرةً في الأولى بدخول النّاس في دين الله تعالى أفواجاً وإظهار دين الإسلام على الدّين كلّه ولو كره المشركون، وفي الآخرة بدخول النّار وبئس القرار. إنّ الكافرين إن لم يؤمنوا هل ينتظرون شيئاً آخر سوى سنّة الله تعالى في الكافرين السّابقين الّذين أهلكهم الله تعالى بذنوبهم. إنّك لن تجد لسنّة الله تعالى في الكافرين بتعذيبهم تبديلاً للعذاب، ولا تحويلاً له إلى غير مستحقّيه. إنّ على كفّار مكة ومن شاكلهم أن يتّعظوا بالسّابقين. والسّعيد من وُعِظَ بغيره.

أعميت بصائر الكافرين ولم يسيروا في الأرض في أسفارهم فينظروا كيف كان عاقبة الّذين كانوا من قبلهم وكانوا أشدّ منهم قوّةً وأكثر عددا كعاد وثمود الّذين أخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون من آثام. إنّ الله تعالى ما

كان ليعجزه من شيءٍ في السّماوات ولا في الأرض ولا مِنْ أحد، فعلى كفّار مكّة أن يأخذوا حذرهم. إنّ الله تعالى كان دائماً وأبداً علـيماً بدخائل النفوس والمعاملة الّتى تستحـقّها كل نفسٍ من إكرام أو إهانة، قـديراً لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

إنّ الله سبحانه وتعالى لو يؤاخذ النّاس بمـا كسبوا من آثامٍ ما ترك على ظهر الأرض من دابّةٍ تدبّ ولا عين تطرف، ولكن يؤخّرهم عـزّ وجلّ إلي أجلٍ مسمّىً هو يوم القيـامة، فإذا جاء أجـلهم فإنّ الله تعالى كان دائـماً وأبداً بصيراً بعـباده، فيجازى كلاًّ بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ.

وما أوضح المعـاني الثّنائيّـة في القسم على غـرار سائر الأقسـام وهي على النّحو التّالي :

إنّ الّذين كفروا لهم نار جهنّم، وكذلك يجزى الله تعالى كلّ كفور.

ولا يُقْضَى على الكافرين في النّار بالموت، ولا يخفّف عنهم عذابها.

والكافرون يعلو صراخهم في النّار، ويقولون ياربّنا أخرجنا من النّار وأرجعنا إلى الدّنيا كي نعمل صالحاً غير الّذى كنّا نعمل سيّئاً.

ويقال للكافرين ألم نعمّركم الوقت الّذى يتّعظ فيه العاقلون، وجاءكم النّذير محمّدٌ ﷺ.

ويقال لهم فذوقوا العذاب، فما للظّالمين من نصير.

والله تعالى عالم غيب السّماوات والأرض، وهو عليمٌ بذات الصّدور.

والله تعالى جعل النّاس يخلف بعـضهم بعضاً، ومن كفر فعليـه كفره وإليه يرتدّ وبال عمله.

ولا يزيد الكافرين كفـرهم عند ربّهم إلاّ مقتاً واحتـقاراً، ولا يزيد الكافرين كفرهم إلاّ خسارا.

قل يا محمّد للمشركين أرونى ماذا خلق الّذين أشركتموهم مع الله تعالى في العبادة من الأرض، أم أنّهم شاركوا الله تعالى في خلق جزءٍ من السّماء أو أجزاء.

أم أنّ لديهم كتـاباً من الله تعالى وحجّـةً بالإذن لهم في إشراك الأصنام في

العبادة، الحقيقة أنّ الظّالمين ما يعد بعضهم بعضاً بشفاعة الأصنام العاجزة المخلوقة المقهورة إلاّ غروراً وخداعاً.

إنّ الله تعالى يمسك السّماوات والأرض ويمنعهما أن تزولا، ولو أنّهما زالتا ما أمسكهما مِنْ أحد من بعد الله تعالى.

والكافرون أقسموا بالله تعالى غاية اجتهادهم في الأيمان لئن جاءهم نذيرٌ ليكوننّ أهدى من إحدى الأمم السّابقة، فلمّا جاءهم محمّد ﷺ النّذير ما زادهم إلاّ نفورا.

فعلوا ذلك من أجل الاستكبار في الأرض والتّعالى على عباد الله تعالى، ومن أجل مكر العمل السّيّء بصدّهم عن سبيل الله تعالى.

ولا يحيط المكر السّيّء إلاّ بأهله، فهل ينتظر الكافرون إلاّ عذاباً مثل عذاب السّابقين.

وأنت لن تجد لسنّة الله تعالى تبديلا، ولن تجد لسنّة الله تحويلا.

أعميت بصائر القوم ولم يسيروا في الأرض، فينظروا كيف كان عاقبة المكذّبين السّابقين.

كانوا أشدّ منهم قوّة، وما كان الله تعالى ليعجزه شيءٌ في السماوات ولا في الأرض.

والله تعالى كان عليماً قديرا.

ولو يؤاخذ الله تعالى النّاس بما كسبوا من آثام، ما ترك على ظهر الأرض من دابّةٍ تدبّ ولا عين تطرف.

والله تعالى يؤخّر الظّالمين إلا أجلٍ مسمّى، فإذا جاء أجلهم فإنّ الله تعالى كان بعباده بصيراً، فيثيب المحسن ويعاقب المسيء.

التّفسير

(١)

(الله تعالى المستحقّ أن يُعْبَدَ وَحْدَه
هو الخالق المدبّر الرّحيم
المحيى المميت السَّميع
العليم الخبير)
الآيات (١ ـ ١٤)

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾

الحمد لله : الحمد هو الثّناء بالقول على المحمود بصفاته اللّازمة والمتعدّية . تقول: حَمِدته لفروسيّته وحمدته لكرمه(١).

فاطر السّماوات والأرض : خالقهما على غير مثال سابق(٢).

جاعل الملائكة رسلاً : إلى من يشاء من عباده وفيما شاء من أمره ونهيه(٣).

أولى أجنحة مثنى وثُلاث ورُباع : أصحاب أجنحة. يعنى ملائكة. فمنهم من له اثنان من الأجنحة، ومنهم من له ثلاثة أجنحة، ومنهم من له أربعة أجنحة(٤) مَثْنى نعت لأجنحة مجرور، وعلامة الجرّ الفتحة المقدّرة على الألف، ممنوع من الصّرف، صفة معدولة. وكذلك ثُلاث، رباع(٥) ومعنى معدولة مصروفة عن وجهها، وذلك أنّ مثنى مصروف عن اثنين، وثلاث عن ثلاثة، ورباع عن أربعة، كما صُرِف عُمر عن عامر، وزُفر عن زافر(٦).

يزيد في الخلق ما يشاء : قال السّدّى: يزيد في الأجنحة وخلقهم ما يشاء(٧).

سورة فاطر المكّيّة(٨) آخر السّور المكّيّة الخمس الّتى تبدأ بالقول : ﴿الحمد

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٣٧.

(٢) الجلالين.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٧٦.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٧٦.

(٥) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٣٣١.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٧٦.

(٧) تفسير ابن كثير ٦/ ٥١٩ وانظر تفسير الطّبرى ٢٢/ ٧٦..

(٨) الإتقان في علوم القرآن للسّيوطى ١/ ٤٣.

لله﴾ وبقيّة السّور هي الفاتحة والأنعام والكهف وسبأ.

إنّ الثّناء العاطر كلّه لله تعالى، خالق السّماوات والأرض على غير مثالٍ سابق، جاعل الملائكة رسلاً بينه عزّ وجلّ وبين أنبيائه ورسله لأنّ الأنبياء والرّسل تكلّمهم الملائكة بفضل الله تعالى. وقد جعل عزّ وجلّ الملائكة رسلاً أصحاب أجنحة، فمنهم من له جناحان اثنان، ومنهم من له ثلاثة أجنحة، ومنهم له أربعة أجنحة. يزيد الله تعالى في الخلق ما يشاء، فيكون للملائكة أكثر من هذا العدد من الأجنحة، كما أنّه عزّ وجلّ يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد، له في كلّ شيءٍ الحكمة البالغة والحجّة الدّامغة. إنّ الله تعالى قديرٌ على كلّ شيءٍ فلا يعجزه عزّ وجلّ شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

ومن البيّن تنبيه الآية الكريمة لخلق الله تعالى هذا الكون الفسيح وتدبيره عزّ وجلّ له. وفي الآية الكريمة نصٌّ على السّماوات والأرض، هذا إلى المعاني الثّنائيّة في الآية الكريمة. إنّ الله تعالى فاطر السّماوات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة. والله تعالى يزيد في الخلق ما يشاء، وهو على كلّ شيءٍ قدير.

مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾

ما اسمٌ شرطٍ جازمٍ في محلّ نصب مفعول به مقدّم(١).

ما يفتح الله للنّاس من رحمةٍ فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده: جاء القول هنا على الأفصح، فأنّث «ما» لذكر الرّحمة من بعده، وذكّر لفظ «ما» لأنّ لفظه لفظٌ مذكّر ولم يظهر ما يدلّ على التّأنيث(٢).

تَجْمع الآية الكريمة في نسقٍ بين رحمة الله تعالى وعزّته وحكمته. إنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذي يفتح لمن يشاء من عباده رحمته ويرسلها إليه، وهو الّذي

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٣٣٢.

(٢) انظر تفسير الطّبري ٢٢/ ٧٧.

يصرف عمّن يشاء رحمته ويمنعها عنه. وإنّ الرّحمة الّتي يختصّ بها من يشاء من عباده لا يستطيع أن يمسكها أحدٌ بمنعٍ أو صرف. وإنّ الرّحمة الّتي يمنعها عزّ وجلّ من يشاء من عباده لا يستطيع أن يرسلها أحد من بعده عزّ وجلّ. إنّه جلّ وعلا هو العزيز في ملكه الّذي له مطلق التّصرّف فيه، وهو الحكيم الّذي يعلم من يستحقّ الرّحمة من عباده ومن لا يستحقّ. وبشأن مراعاة معنى الشّرط ولفظه فأنّث على معنى الرّحمة وذكّر مراعاةً للّفظ يوضّح الزّمخشريّ قول الطّبري السّابق. يقول في الكشّاف[1]: «ولأنّ الأوّل فسّر بالرّحمة فحسن إتباع الضّمير التّفسير ولم يفسّر الثّاني فترك على أصل التّذكير... وإنّما فُسِّر الأوّل دون الثّاني للدّلالة على أنّ رحمته سبقت غضبه».

ولثنائيّة المعاني وجودٌ في الآية الكريمة. إنّ ثمّة رحمةً مرسلةً ورحمةً أخرى غير مرسلة. والله تعالى هو العزيز في ملكه الحكيم في صنعه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾

فأنّى تؤفكون: فأيّ وجهٍ عن خالقكم ورازقكم الّذي بيده نفعكم وضرّكم تصرفون[2] ومن أيّ وجهٍ تصرفون عن التّوحيد إلى الشّرك[3].

تنادي الآية الكريمة كفّار مكّة في المقام الأوّل وتقول لهم: يا أيّها النّاس اذكروا نعمة الله تعالى عليكم إذ مكّن لكم بلداً آمناً يُجبى إليه ثمرات كلّ شيء، وقوموا بما يجب عليكم من شكرٍ لله تعالى بإفراده بالعبادة وتصديق رسوله ﷺ.

---

(١) ٢/ ٥٦٩.

(٢) تفسير الطّبري ٢٢/ ٧٧.

(٣) الكشّاف ٢/ ٥٧٠.

هل مِنْ خالقٍ غير الله تعالى يرزقكم من السّماء والأرض؟ إنّ الله تعالى هو وحده الخالق الرّازق، وأنتم معترفون بذلك ومقرّون بتوحيد الرّبوبيّة فلماذا لا تقرّون بتوحيد الألوهيّة، ولماذا لا تعبدون الله تعالى وحده لا شريك له. إنّه لا إله إلاّ هو فكيف تُصْرفون عن توحيد الله تعالى خالقكم ورازقكم ومدبّر أمركم! وكيف تشركون الآلهة المزعومة مع الله تعالى في العبادة وهي الّتى لا تملك مثقال ذرّة في السّماوات ولا في الأرض. إنّ الله تعالى هو الخالق القادر العزيز الحكيم الرّحيم الرّازق؛ بيده الخير وإليه المصير.

إنّ على النّاس أن يذكروا نعمة الله تعالى عليهم، والله تعالى هو الخالق الرّازق. والله تعالى لا إله إلاّ هو فكيف يُصْرَف المشركون عن التّوحيد. وهكذا تَتَجلّى المعاني الثّنائيّة الّتى يعمّقها ذكر السّماوات والأرض والإيماء إلى توحيد الرّبوبيّة الّذى يقرّ به المشركون وتوحيد الألوهيّة الّذى لا يقرّون به.

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾

إنّه على الرّغم من كلّ هذا التّوضيح والبيان لكفّار مكّة ومن شاكلهم فإنّهم يصرّون على الكفر والعناد والصّدّ عن سبيل الله تعالى. وإنّ الحقّ عزّ وجلّ ليسلّى حبيبه ﷺ ويثبّت فؤاده بالتّسرية عنه وتقرير عادة المشركين في كلّ زمان ومكان في تكذيب رسل الله تعالى. إنّك يا محمّد إن يكذّبك قومك فقد كُذِّبَ رسلٌ من قبلك وأوذوا فصبروا على التّكذيب والإيذاء حتّى جاء النّصر من الله تعالى والفتح القريب. إنّ إلى الله تعالى وحده لا شريك له تُرْجع كلّ أمور الخلائق في الآخرة فيثيب المحسن ويعاقب المسيء. ولله تعالى وحده الأمر من قبل ومن بعد، فعلى العبد أن يتوكّل على الله تعالى في كلّ أموره، والله تعالى يهدى الّذين يجاهدون في سبيله السّبل الموصلة إلى رضاه عزّ وجلّ، وأنت يا محمّد زعيم المجاهدين وإمام المتّقين.